المطالب الخلقية بعد الحرب

وهل فى وسع التربية تحقيقها ؟

لحضرة الدكتور تشارلس وطسن
مدير الجامعة الأمريكية

" ألقيت هذه الكلمة القيمة بالجامعة الأمريكية "

يتساءلون عن أهم ما يفتقر اليه العالم بعد الحرب ، فيذهبون فى الإجابة كل مذهب . يجيب بعضهم أنه المطاط ، ويرى فريق أنه الفولاذ ، ويزعم آخرون انه السفن لتيسير التجارة والنقل ، ويذهب قوم إلى أنه مئات الأماكن التى أصابها ما أصابها من الدمار والتخريب بالأغذية . كما يؤكد غيرهم أنه العقاقير والفيتامينات . أما أنا فاسمحوا لى أن أتعالى بكم إلى أفق دون مستواه النفعيات ، وأقول إن أهم ما نحتاج إليه بعد الحرب هو الأخلاق الكريمة . ويمكن الحكم على جسامة حاجتنا إلى هذه بما أصاب المقاييس الأخلاقية فى هذه الأيام من التدهور والانحلال .

تأملوا فى عوامل التجربة والإغراء التى تكتنف اليوم القوات المتحاربة فى جميع الأمم ، وانظروا كيف أن جيلا كاملا من شبابها قد مزق الروابط الاجتماعية وانسلخ من تلك المبادئ التى كانت فى الأحوال العادية تكبح جماحه وتهديه إلى سواء السبيل . انظروا كيف أن مجافل هذا الشباب قد حرمت من عيون كانت بالأمس فى الأوطان ترعاها وتسامى بها إلى المكارم ، فاذا بها اليوم طعمة لشراك الإغراء الجنسى . ففى محطات السكك الحديدية تعرض عليها للبيع صور وكتب من أحط ما يرى وما يقرأ . وفى حالة من ثورة النفس تستهوى الجندى الخمر ، فيخضع لسلطانها ، أملا فى أن يسكر بنشوتها لتخفف عنه ألم الوحدة ، وتهدئ أعصابه الثائرة .

ولست أريد هنا أن أنتقص من الجهود المنظمة التى تبذل فى حماية الجنود من هذه المساوئ وسواها ، بكيفية لم يسبق لها فى تاريخ الحروب مثيل ، وإنما أردت أن أبين أن هبوط المستوى الخلقى بسبب الحرب كان أمرا لا مفر منه ، وهذا أمر لا ينكره كل من كان على بينة من بواطن الأمور .

وهناك أمر آخر ينبغى أن نضيفه إلى هذه الصورة التى رسمناها لكم ، وهو أن هبوط المستوى الخلقى لم يكن مقصورا على القوات المتحاربة ، وإنما شمل كذلك المدنيين ، والأدلة على هذا تجل عن الحصر . أليست الأسر مفككة ، والبيوت مصدعة ؟ فهذا الزوج والأب جندى فى الجيش ، وهذه الزوجة والأم لبت نداء الوطن فاشتغلت فى مصانع الذخيرة وغيرها مما نهضت به الحرب ، وهؤلاء البنون والبنات يتركون بغير رقيب .

كذلك دور الأعمال قد تأثرت. فهناك إخفاء السلع وتخزينها. وهناك الأرباح الاستثنائية الفاحشة. وهناك الوصايا العشر، قد استبدلت الوصية الثامنة منها وهي "لا تسرق" بقولهم "لا تسرق قليلا". وها نحن في مصر، ولسنا من الأمم المتحاربة، نحس بهذه الموجة العميقة الناشئة من العبث بالقانون والاستهتار بالمبادئ، فنقرأ عن الفضائح المنكرة في الاتجار بالمخدرات، وسرقة الأدوية والعقاقير من المستشفيات. وكذلك الأمر في أميركا، فعند ما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها طغت على البلاد موجة من أشد السرقات جرأة، ودب فيها وباء خطف الأطفال، وقيام عصابات تفرض ضرائب في المدن الكبرى على أصحاب المحال والمخازن التجارية.

وكلما طالت الحرب، زادت الأخلاق تدهورا. ولقد صدق البارون "فون هوجل" حينما قال إن حروب نابوليون — وقد طال أمدها — قد تأثرت بسببها الحياة الأوربية فرجعت القهقرى بما يقرب من ثلاثين عاما. ولعل الدليل على هذا أن انجلترا بعد معركة واترلو لم تستطع التصديق على صك الاصلاح إلا بعد سبعة عشر عاما، وأن فرنسا لم تربح معركتها الاولى ضد آل بوربون إلا بعد خمسة عشر عاما.

أجل، إنا إزاء هذا التدهور اليوم، بسبب الحرب الحالية، لفي حاجة ملحة إلى ذلك لمستوى الخلق الرفيع الذي نعده أساس الجماعات المنظمة. بيد أن المسألة أشد خطورة مما يبدو لأول وهلة. وذلك لأن مستوى الأخلاق. وإن لم يك كافيا لمطالب العالم قبل الحرب أو يوشك أن يكون كذلك، ولم ترع حرمته على الوجه المطلوب، لن يعود كافيا لسد حاجات العالم بعد الحرب.

من العبث أن نخدع أنفسنا فنظن أن أمة من الأمم بعد الحرب — مصر كانت أو أميركا، أو أي بلد من بلدان أوروبا أو آسيا — تستطيع أن تعود نظم الحياة فيها إلى ما كانت عليه قبل الحرب. إن مصر بعد الحرب لن تكون مصر قبلها أبدا. فهذه الملايين من المجافل التي تهافتت عليها من انجلترا واستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا وهندستان وأميركا، هل كان قدومها مجرد زيارة لم تترك آثارا، سيئة كانت أو حسنة على النقيض من ذلك قد تأثرت بها أقصى القرى، في الآراء الاجتماعية، والوسائل المعيشية، والمعارف العامة العالمية، حيهات أن تقصر الحياة فيها على ما كانت عليه من قبل. لقد اتسع الأفق أمامها. فامتدت علاقاتها، لا بالعالم الغربي وحده، بل بالعالم أجمع. وما يقال عن مصر يقال عن سواها من الأمم. ولربما كانت أميركا في مقدمتها، وقد خرجت أخيرا عن عزلتها لتتصل بالعالم الخارجي.

فيجمل بنا إزاء هذه الحالة أن نزن بميزان العقل، نتائج ما نحن قادمون عليه من حياة جديدة واسعة الأفق، وبما تتطلبه من خلق أعلى مقياسا وأسمى قوة، في ظروف وملابسات أشد خطورة مما كانت. ولننتقل بكم الآن من العام إلى الخاص.

أول ما يتبادر إلى الذهن مما نتوقع حدوثه بعد الحرب ، قيام هيئة عالمية تكون أقوى أثرا ، وأسمى شأنا مما كانت عليه عصبة الأمم قبل الحرب . فما الشرط الأساسى الذى تتطلبه هذه الهيئة ؟ وهل ثمة ما يفوق العنصر الأخلاق بين الأمم توفيرا لهذا الشرط ؟ و إلا فلم فشلت العصبة فى قرارات كان العالم أشد حاجة إلى البت فيها ؟ ألم يكن السبب أنه بالرغم من التأكيدات والعبارات القوية المحبوكة التى صيغت بها مبادئ الولاء للعصبة ، اتضح أن دولة معينة من أعضائها كانت تعقد اتفاقات سرية منافية لهذه المبادئ ؟ ألم يكن الاخلال بشرف العهود والمواثيق بين الأمم سببا فى انحلال العصبة وتفكك أوصالها ؟ إذا فالعصبة الجديدة لن تقوم لها قائمة مالم تكن دعامتها من الصراحة أقوى ، ورائدها من الأمانة والصدق أسمى من سابقتها . وينبغى ألا تكون كلمة " دبلوماسى " أو " دبلوماسية " بعد اليوم ، مرادفة لمعنى الخديعة ، والمماطلة ، والختل ، والمعاملة ذات الوجهين ، والدعوة للخلق الكريم ، وحسن المعاملة بين الانسان والانسان معروفة منذ القدم . فقد قرأنا فى القرآن الكريم " يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما " (الآية ١٣٤ سورة النساء) وقرأنا فى التوراة للمسيحيين واليهود عن المكم بالصدق فى قلبه : "يحلف شاهدا على نفسه وإن كان فى ذلك وبال عليه " .

يتبين من هذا أن الصدق وحفظ العهود بين الأفراد قد أمرت بها جميع الأديان على السواء . على أن تطبيق هذا المقياس الخلقى بعد الحرب ينبغى أن يشمل الامم والأفراد . ذلك لأن المقاييس الدبلوماسية الدولية المعمول بها الآن لم تعد كافية . والعالم بعد اليوم فى شديد الحاجة إلى السمو بها ، و إلا كان لا بد لأولادنا أن يخوضوا غمار حرب عالمية أخرى ، لا قدر الله .

وما سردناه من الأدلة عن المستوى الخلقى بين الأمم ، يمكن تطبيقه على العلاقات التجارية والحياة الاجتماعية والاقتصادية . ولكنى لا أحاول الخوض فى هذا الموضوع ، لانتقل بكم إلى الإجابة عن هذا السؤال . ألا وهو ما العلاقة بين هذا كله وبين التربية ياترى ؟

وإذا ما تحدثنا عن التربية فاننا نصطدم برأيين ، رأى يعنى بالمعرفة البحتة ، وآخر يعنى بالمعرفة والخلق ، والجامعة الأمريكية بالقاهرة من هذا الرأى الأخير ، ويبلغ اعتزازنا بهذا المبدأ . إننا لو خيرنا بين الأمرين ، لآثرنا أن نترك الفرد فى غياهب الجهل ، عن أن نزوده بالعلم مجردا عن المبادئ الخلقية . أليس هذا أقل خطرا على المجتمع ؟ فهاكم رجال العصابات ولصوص البنوك ، هل هم جهلاء ؟ كلا ، إنهم كثيرا ما يكونون على جانب عظيم من العلم والمعارف الفنية ، ولكن ينقصهم الخلق . ولذا فاننا نقول لوالدى الطلبة وأولياء أمورهم " إن جامعتنا ليست مكتب استعلامات ، ولكنها معهد ، للمبادئ الخلقية فيه أسمى منزلة بجانب المعرفة " .

ولكن هل فى مقدور التربية أن تبث فى نفوس النشء هذا الخلق ؟ و إذا كان الأمر كذلك فما هى الوسيلة ؟ لنعترف أولا بأن البيت أبعد أثرا فيما يتعلق بهذه المسألة من المدرسة . فقلما تستطيع المدرسة أن تفعل شيئا لشاب نشأ فى بيت ، هبط مستواه الخلقى ، فتفشى فيه الخداع والكذب ، بين الزوج والزوجة ، و بين الوالد وأولاده ، و بين السيد وخدمه ، و بين أفراد الأسرة ومعشر أصدقائهم . بيد أن البيت إذا تعاون والمدرسة ، أمكن الوصول إلى نتائج محمودة . ولكن كيف ؟

أجيب عن ذلك بقولى إن التربية الخلقية أصبحت فى السنوات الأخيرة علما . لقد أوسعها المربون درسا و بحثا . ووضعوا لها اختبارات ومقاييس . وفى معهدنا هذا نحاول أن ننتفع بنتائج هذه البحوث التى كشفت النقاب عن حقائق غريبة . من ذلك أن مجرد استذكار الحكم الأخلاقية وحفظ المبادئ الدينية عن ظهر قلب ، تكاد تكون عديمة الفائدة قطعيا . ومع ذلك فهذه كانت ولا تزال الطريقة الشائعة فى بث المبادئ الأخلاقية وتربية النشء عليها . فهل إذا حفظ الفتى الوصايا العشر أو أمثال سليمان ، أو غير ذلك من الحكم ، يمتنع عن ارتكاب الرذائل ؟ تدل التجارب والأبحاث أن الجواب عن ذلك سلبا ، قد تكون هذه ذات فائدة كوسيلة من وسائل التعبير لمن سمت أخلاقه . ولكنها تكاد تكون عديمة النفع كأداة رادعة . إن المسألة تتطلب التعمق إلى ما هو أبعد من مجرد الاستذكار .

من أشد العوامل أثرا فى التربية الخلقية ، البيئة التى ينشأ فيها الطالب . فما الجو المدرسى الذى ينشأ فيه ابنك ؟ أجو يتفشى فيه الغش فى حجرة الدراسة ، وفى ساحة اللعب ، أم جو يسود فيه الصدق والرجولة السليمة الكاملة ، والتفكير الذى لا تشوبه شائبة ، والروح الرياضية العالية ؟

وهناك عامل آخر له أثر عظيم فى حياة الطالب وهو اتصاله برؤساء وزعماء ذوى مبادئ أخلاقية سامية . وهذا هو السر فى جماعات الكشافة . فالكشاف الزعيم حقا هو سر نجاح الجماعة التى يقودها . وقد صدق من قال إن الأخلاق تكتسب ولا تلقن ، أجل تدرك بالاتصال بمن نبلت أخلاقهم .

ولما كانت جامعتنا تعلم أنه يغلب على أساتذتها ، من أصحاب الكراسى ، أن يترفعوا أو يكونوا بمعزل عن الطلبة لما بينهم من الفوارق فى السن ، فانها تستدعى على الدوام من أميركا شبانا ممتازين ، كما تختير نخبة من شباب المصريين للتدريس ، يكونون أكثر ميلا للاختلاط بالطلبة من الأساتذة الكبار ، وذلك فى الألعاب الرياضية وفى نواحى النشاط على اختلاف أنواعها . بهذا التأثير الشخصى من أفاضل الأمريكيين والمصريين نستطيع أن نكون فى النشء خلقا سليما .

و يوجد عامل أساسى آخر له أثر كبير فى تكوين الخلق ألا وهو أن ييسر للطالب أن يبت فى الأمور بنفسه ، و يشجع على تقرير الأشياء بذاته . وقد سبق القول إنه يستدل من

مبادئ التربية الحديثة أن استذكار الحكم الخلقية قليلة الجدوى ، فم ذلك ؟ السبب فى ذلك أن الفرد لم يكن له نصيب فى وضع هذه الحكم . و إنما هو قد تلقنها تلقينا بغير دليل مقنع ترتاح إليه نفسه ، أو بتعبير آخر أنها فرضت عليه فرضا .

وأرجو المعذرة إذا عدت بكم الى اختبار شخصى ، أرانى مدينا به إلى والدى الذى لاقى مثواه منذ زمن ليس بالقريب . فقد توجهت إليه مرة بهذا السؤال (أبى أأفعل هذا أم هذا ؟ (فأبى على الاجابة وترك لى الحكم قائلا) أيهما الصواب فى نظرك ياشارل ؟ ، وفى خلال السنوات التى قضيتها من عمرى بعد ذلك إلى يومنا هذا ، تحملت تبعة البت فى أمورى بنفسى ، سواء أكنت وحدى أم مع الغير ، وسواء أكان ذلك ليلا أم نهارا ، وسواء أكنت مع الأغلبية أم مع الأقلية .

أجل أيها الأصدقاء ، إن المبادئ الأخلاقية لا يمكن أن تفرض فرضا على الانسان ، بل ينبغى أن تكون ثمرة الاختيار الحر ، والبت فى الأمور ، على أنه و إن كان ينبغى أن يكون بالارشاد والنصح ، فانه فى أساسه يجب أن يتصل بالحياة الواقعية كما هى وأن يكون من عمل الطالب ذاته .

وأخيرا دعونى أؤكد لكم ما هنالك من العلاقة الوثيقة بين الخلق والدين . إن الدين أيا كان ، يصلح أن يكون أساسا للمستوى الخلقى . إن الايمان بالله تعالى ، المهيمن على أخلاق الكون ، والاعتقاد بالحياة الأخرى ، هما الحصن المنيع الذى تشاد عليه فكرة الخلق . قال مرة سير روبرت سيسل "صدقونى أنه ليس من الصواب ان تثقوا برجل يقول إنه لا يعتقد بالله ولا الحياة الآخرة" ومن حسن الحظ أن الأديان الثلاثة التى تدين بها الأقطار المجاورة لنا — الاسلام والمسيحية واليهودية — تؤمن بالله و بالحياة الأخرى ، وبدا تصلح أن تتخذ أساسا وثيقا للتربية الخلقية . ان هذه الجامعة و إن كانت معهدا مسيحيا بطبيعتها فانها تشجع طلابها على البحث فى أديانهم ليستمد كل من دينه القوة والارشاد . أضف إلى هذا أن الجامعة قامت بأكثر من ذلك وهى أنها طلبت إلى أحد أساتذتها ، وهو متبحر فى اللغة العربية وملم بأحوال الشرق ، أن يقضى عاما كاملا فى دراسة الآراء الدينية والخلقية فى الشرق الأدنى ، حتى يقف منها على خير ما ينتفع منها فى تدريس علم الأخلاق . وكثيرا ما يستحثنا الغير على أن يكون معهدا علميا بحتا ، فنأبى ذلك لاعتقادنا بأن الخلق والدين صنوان لا يفترقان .

هذه هى بعض الطرق التى تثمرها التربية العلمية الحديثة لتكوين الخلق . وسواء تعلقت هذه الطرق بهذه الجامعة أو سواها ، فاننا نؤمن أن يستجيب الوالدون وأولياء الأمور وزعماء التربية فى كل مكان لهذه المطالب الملحة التى تفتقر إليها الانسانية بعد الحرب ، حتى تزود بالعدة الكاملة . لا لتصلح ما أفسدته الحرب من الأخلاق فحسب ، بل لتشيد عالما جديدا أسعد حالا من عالمنا هذا .

دكتور
تشارلس وطسن